الضَّـــوَارى

تقولُ العرب: ضرى بالشيء وضرى عليه؛ إذا أولع به واعتاده. وكذلك يقولون: ضراه به وضراه عليه. فالضارى من الجوارح والكلاب، المدرَّب على الصيد. والضارى من السباع، المولَع بأكل اللحم. والضارى من الماشية، المعتاد رعى زروع الناس.

والعرب تتصرَّف فى هذه المادة على مثالين: أحدهما، بجعل الفعل من باب فرح يفرح فرحًا، فتقول: ضرى يَضرى ضرىً؛ وثانيهما بجعل الفعل من باب سما يسمو سموًّا، فتقول: ضرا يضرو ضُروًّا. ومنه قولهم: ضرا العِرق فهو ضارٌ، يَعنون أنه بدا منهُ الدم.

وفى الحديث الشريف: «إن للإسلام ضراوة»؛ يعنى أن له ولعًا به عند معتنقيه حتى لا يصبروا عنه. وفى حديث عمر - رضى الله تعالى عنه -: «إن للخَّم ضراوة كضراوة الخمر» معناه أن اللحم له عادة طلابّة لأكله كعادة الخمر مع شاربها، إذ كان من يعتاد شُرب الخمر، يسرف فى النفقة حرصًا عليها وطلبًا لها، وكذلك من يعتاد أكل اللحم، يسرف فى النفقة أيضًا حرصًا عليه وطلبا له، فيدخل بذلك فى باب الإسراف الذى تنهى الشريعة عنه، حتى المتوضئ يُكره له أن يسرف فى الماء ولو كان يتوضأ من بحر أو نهر.

الأســـد:

ليس إجماعًا عندهم أن الأسد مما يقبل التضرية، وإن كانوا يذكرون أن

قناصًا سورانيًّا[1] - من أهل (سورا) وهى موضع بالعراق - بلغ من حذقه أنه ضرى أسدًا حتى اصطاد به الحمر والبقر وعظام الوحش صيدًا ذريعًا. غير أن كثيرًا من أهل العلم لا يطيب لهم أن يعتبروا الأسد فيما يضرى من السباع، محتجين لمذهبهم هذا بأنه حيوان لا تتصوَّر تضريته، من أجل قوته وجراءته وقساوته وشهامته وجهامته وشراسة خلقه، حتى لقد ضربت العرب به المثل فى القوة والنجدة والبسالة وشدة الإقدام. والناس يعرفون أن من شرفه أنه صبور على الجوع قليل الحاجة إلى الماء، وأنه بذلك يخالف سائر السباع، كما يعرفون أنه لا يأكل من فريسة غيره، وإذا شبع من فريسته تركها ثم لم يَعدُ إليها، ثم هو - لشرفه أيضًا - لا يشرب من ماء ولَغ فيه كلب، كما أشار إلى ذلك شاعر صرف نفسه عن هوى شارَكه فيه آخرون، فذلك حيث قال.

وأتركُ حبها من غير بُغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيهِ
إذا وقَع الذباب على طعام ... رفعتُ يدى ونفسى تشتهيهِ
ويجتنب الأسودُ ورُود ماءٍ ... إذا كان الكلاب وَلغن فيهِ

ومثل هذا القوى الجرىء الشريف الأنوف، تستعصى تضريتّه فلا يصيد لغيره. وما وقع من ذلك - فيما ذكروا - إما أنَّه مبالَغ فيه، وإما أن له أسبابًا خاصة لا تتوافر لكل أحد، ولا فى كل أسد.

الذئب:

ومثل هذا الذى قاله أهل فن الصيد فى الأسد، قالوا فى الذئب، فذكروا أن ذلك القناص السورانى الحاذق الذى ضرى الأسد حتى اصطاد به حُمر

---

(١) روى الجاحظ أن هذا السورى، من عبس عيلان، وأن حليمة ظئر النبى (صلى الله عليه وسلم) منه ولدته

الوحش، بلغ من حذقه بتدريب الضوارى وتضريتها، أنه ضرى الذئب حتى صار مثل الأسد.

وبمثل ما ردوا القول بتضرية الأسد، ردوا القول كذلك بتضرية الذئب، محتجين لما ذهبوا إليه بأن ذلك أيضًا مما يستعصى أشد الاستعصاء، لأن فى الذئب من صفات الأسد إيثار الوحدة والانفراد، ولأنه لا يعود إلى فريسة شبع منها أبدًا، ولأنه شديد الحذر، حتى أنه لينام - إذا نام - بإحدى مقلتيه والأخرى يقظى، فيجمع بذلك بين النقيضين: اليقظة والنوم، لأنه شديد الحذر سيئ الظن بالأحياء، فذلك حيث يصفه الشاعر حميد بن ثور الهلالى فيقول:

ونمت كنوم الذئب عن ذى حفيظة ... أكلت طعامًا دونه وهو جائع
ينام بإحدى مقلتيه ويتقى ... بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

فقد شبّه الشاعر حاله - فى استئثاره بالطعام حتى بات شبعان ورفيقه جائع بحال الذى ينام بإحدى مقلتيه، فكما أن الذئب يصنع ذلك اتقاء للخطر وإيثارًا للحذر، فكذلك يصنع الشاعر ما يصنع الذئب اتقاءً لحفيظة رفيقه[1].

وأنت إذا قُدِّر لك أن تصطاد ذئبًا ثم تضربه بالعصا والسيف حتى تقطعه أو تهشم رأسه فإنك لن تسمع له صوتًا حتى يموت، وهذا - كما ترى - فى باب الصبر عجيب. ومن طبيعة الذئب أنه لا يطيق رؤية الدم، فلو أن إنسانًا اجتمعت عليه ذئاب فتمكن من إدماء واحد منها، فإن سائرها تنب على الدامى فتمزقه مشغولة بذلك عنه، فيجد السبيل إلى النجاة.

ومما يؤيّد أن الذئب غير قابل للتضرية: ما رواه البيهقى عن الأصمعى

---

(١) كذلك كان يفهم بعض الشيوخ هذا الشعر وإن كان مساق القصيدة فى ديوان حميد لا يساعد على ذلك.

قال: دخلت البادية فإذا عجوز بين يديها شاةٌ مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب، فنظرت إليها فقالت: أتدرى ما هذا؟ قلت: لا، قالت: هذا الجرو أخذناه وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر قتل شاتنا هذه. ثم انطلقت تنشد:

بَقَرْتَ شُوَيهتى وفجعت قلبى ... وأنت لشاتنا ولدٌ ربيبُ
غُذيت بدرِّها وربيت فينا ... فمن أدراك أنَّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباعُ طباع سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيد ولا أديبُ

ولستَ ترتاب - جنبَّك الله الشبهة - فى أن الذئب بهذه الأوصاف تستعصى تضريته، فلا يمكن أن يصيد لغيره، وما روى من نبأ ذلك السورانى الحاذق الذى ضراه، فإما أنه مبالغٌ فيه، وإما أن له أسبابًا خاصة لا تتوافر فى كل ذئب يحاول تضريته إنسان.

ومما يؤنس لهذا الرأى - فيما نرى - أنك ترى العرب يقولون: بيّاز لصاحب البازِ، وصقّار لصاحب الصقر، وفهّاد لصاحب الفهد، وفيّال لصاحب الفيل، وكلّاب لصاحب الكلب، ولكنك لا تراهم يقولون: أسّاد ولا ذءّاب. فلو كانت تضرية الأسد والذئب من المعاريف عندهم لكنت قد وجدت هذا البناء اللغوىَّ إلى جانب تلك الأبنية، فحيث لم تجده دل ذلك على أن هذه التضرية للأسد والذئب باب بعيد.

الفهــد:

هو سَبع الضوارى، كما أن العقاب سبع الجوارح، وهو يُصاد ثم يُؤنس لكى يُصاد به.

وخير ما يقال حول الفهد ما ذكره بياز العزيز بالله الفاطمى فى كتابه البيزرة.

ومن أحب أن يصيد الفهد فليعلم كيف يصاد ويطب، وكيف يشد إذا صيد، وإلا فلو وقع يومًا على عشرة ولم يحسن طردها وصيدها ومداراتها إلى أن يصل بها إلى منزله - لم يلحق منها شيئًا.

والفهد لا يقدر عليه إلا فى يبس، ويحتاج من يطرده أن يحفظ أثره، لأنه متى خفى عنه أثره لم يجده. فإذا صاده فليشدد زوائده بخرقة بعد أن يطرح عليه كساء ويكممه ويجعله فى غرارة يكون رأسه خارجًا منها لئلا يموت من الحر وعندنا «بنوقرة» متعودة لصيده. فإذا صار به إلى منزله فليعرض عليه الماء، فإن شربه، وإلا رشه على رأسه وأكتافه وخواصره وجوفه. ويعمل له قلادة فيها مدور لئلا يدور فتلتوى على عنقه ويكون فيها مجر جيد، ويضرب له سكة فى مكان بارد يشده فيها إلى اخر النهار، ثم يأخذ من لحم خروف ثلاثة أرطال، ويقطعه صغارًا ويرسيه فى قصعة الفهد، ويحل الكمامة عن فمه، ويكون فى جنبه، ويقدم له القصعة، فإنه يأكل، ولايزال هو يمسحه فإذا كان وقت العشاء فليدخل به البيت برفق، ويجعل له قنديلاً فى سقف البيت ليضىء عليه، ويسهر معه أكثر الليل بالتمسيح ليألفه، فإذا عمل به ذلك ليالى وأنس ووقف على قوائمه ودار حواليه، فعند ذلك يحل مجره عند إطعامه، ويستجيبه بالقصعة فكلما لحقه رمى له فى القصعة قليلاً من طعمه إلى أن يفرغ الطعم، ويعمل به ذلك أيامًا حتى يتبعه مثل الكلب السلوقى، ثم يعمد بعد ذلك فيبنى له مثالاً فى البيت على قدر الدابة ويطرح على المثال الطنفسة التى يطرحها على الدابة. وإذا أراد أن يطعمه على المثال استجابه إليه، فإذا صعد رمى له فى القصعة قليلاً من اللحم فإذا أكله أنزل القصعة إلى الأرض، فإذا نزل إليها رمى له فيها من اللحم، فإذا أكله شال القصعة إلى ذلك المثال المبنى وصاح به، فإذا صعد إليه أشبعه، ولا يزال يعمل به كذلك مرارًا حتى يثق بإجابته، فحينئذ فليقدم له الدابة، ولتكن فرسًا هادئًا

لا نفورًا، وليستجبه إليه. فإذا طلع على الفرس ولم ينفر وصار محكمًا، أخرجه إلى الصحراء وجعل طعمه فيها، وأحكم إجابته إلى الدابة حتى إنه يجرى الفرس جريًا، والفهد يجرى يطلبه. فإذا رآه كذلك فقد أحكم إجابته، ثم يطعمه يومًا ويغبه[1] يومًا، وليكن حول قصعته حلق لتكون له علامة إذا سمعها جاء إليها ولم يتأخر. فإذا أحكم ذلك، ولم يبق عليه فى تعليمه شىء، فليخرج به إلى الصحراء ويأخذ معه غزالاً ويخله له. فإذا أخذه ذبحه وقدم القصعة وفيها طعمه من اللحم الطرى وجعل فيها من دم الغزال، فإذا أشبعه ركب الدابة وأخذه. فإذا عمل به ذلك مرارًا فليطلب به غزالاً فإنه يصيده. فإذا شبع وتمهد عليه طلب به عجول بقر الوحش فإنه يصيدها إن شاء الله. وهذه صفة الضراءة وما عندنا فيها.

ما يستحسن من صيد الفهد:

اعلم أن الصيد بالفهد ثلاثة أصناف: فمنها أن ينزل إلى الوحش ولا تعلم به، ومنها ما يكون مجاودة، ومنها ما يخلى وتطرد له الوحش، وهى أبواب ثلاثة ملاح، وأحسنها ما كان مجاودة.

وزعم أرسطو طاليس أن الفهد تولد من سبع ونمر. ومن شأنه إذا وثب على طريدة لم يتنفس حتى يأخذها، فيحمى لذلك، وتمتلئ رئته من الهواء الذى حبسته. وسبيله أن يراح ريثما يخرج ذلك النفس، وتبرد تلك العلة، ويشق له قلب الطريدة بعد تزكيتها، ويطعمه ويسقيه ربه من الماء إن كان الزمان حارًا، ودون الرى إن لم يكن الحر شديدًا، ثم يبتغى به طريدة أخرى، ولا يكلف فى يومه أكثر من خمسة أطلاق، وقد يصاد به فى اليوم نحو

---

(١) من قولهم غبت الماشية من الورد إذ شربت يومًا وتركت يوما

عشرة أطلاق، وإن لم يرح لم يفلح بعد ذلك.

ومن طباعه الحياء، وكثرة النوم والغضب. وليس يعلم أنه عاظل[١] أُنثى وهو فى يد الإنس، وقد عنى بمراعاة ذلك واجتهد فيه فلم يعرف منه، والأسد كثيرًا ما يفعله.

وذكر بعض الفهّادين العلماء بصيدها وطباعها أنه يمسح الفهد والفهدة ويمر يده على جميع أعضائها فتسكن لذلك حتى تصيب يده موضع بعرها فتقلق وتنعطف عليه لتعض يده. ونومه يضرب به المثل، قال بعض الشعراء يصف نومه:

فأما نومه فى كل حين فعين الفهد لا تقضى كراها

وقال بعض الكتّاب - وقد عابه قوم بكثرة النوم ونسب إلى الإخلال بأعماله والتقصير فى أموره:

رقدت مقلتى وقلبى يقظا ن يجس الأمور جسًّا شديدا
يُحمد النوم فى الجواد كما لا يمنع الفهد نومه أن يصيدا

وله سبيلان فى صيده.. سبيل ما كان فيه استخفاء ويطلق عليه الدسيس، وسبيل ما كان ظاهرًا واضحًا ويطلق عليه المصحر، وسبيل الفهد فى صيده دسيسًا، غير سبيله فى صيده مصحرًا، وهو أبله جدًّا لما يظهر منه فى تعلمه لستر شخصه وخفاء سره، ويرسل على بُعد من الطريدة بعد أن يتشوفها، ويتلطف لإرساله من غير قلق، فتراه يمر مثل عناق[٢] الأرض رافعًا يدًا

(١) المعاظلة فى السباع كالمسافدة فى الطيور، ركب بعضها بعضًا للسفاد.

(٢) عناق الأرض فى حديث قتادة: دابة وحشية أكبر من السور وأصغر من الكلب تصيد كل شىء حتى الطير.

وواضعًا أخرى، على وزن وقدر متناسب، مادامت الظباء نـاكـة رءوسهـا ترتعى، فإذا شالتها وخاف منها التنبه عليه، أمسك على الصورة التى تنتهى به الحال إليها، لا يقدّم ولا يؤخر، ولا يرفع الموضوعة، ولا يضع المرفوعة، وما يزال على ذلك حتى يظفر بما يريد.

والمُسِنُّ من الفهودة إذا صيد كان أسرع أُنسًا وأقبل للتأديب من الجرو الذى يربى ويؤدَّب، لأن الجرْو يخرج خبًّا مخادعًا خبيثًا، والمسن يخرج على التأديب صيودًا غير خَبّ[1]، والأنثى أصيد، وكذلك عامة إناث الجوارح، وهو من الحِداد الأسنان، ويدخل بعضها فى بعض، وكذلك الكلب والأسد.

وإذا أثقلت الأنثى بالحمل؛ حنَّ عليها كل ذكر يراها فواساها من صيده، فإذا قاربت الولادة هربت إلى موضع كانت قد أعدّته لذلك.

ومما لا يسع التغاضى عنه وصف ابن المعتز فهدة فى قصيدة طويلة نكتفى منها بالأبيات التالية:

ولا صَيــد إلا بـوثّـابــة   تطير على أربعٍ كالعَذَب[2]
فـإن أُطلقَت من قـلادتهـا   وطـار الغبار وجَـدَّ الطلب
فزوبعة من بنات الريـاح   تريك على الأرض شيئًا عجب
تضم الـطريد إلى نحـرها   كضمِّ المُحِبةِ من لا يحبّ[3]

هذا.. والعرب تشتقُّ من كلمة فهد فعلًا، فتقول: فَهِدَ الرجل يفهدَ فهدًا،

---

(١) الخب المخادع.

(٢) العذب جمع عذبة، وهى الخيوط التى ترفع بها الموازين، شبه بها الشاعر أرجل الفهدة فى الدقة والنحول.

(٣) فى هذا البيت مبالغة فى وصف تشبثها بصيدها، لأن ضم المحب من يعلم أنه لا يساعده على المحبه، أشد توثقًا ولزامًا.

كفرح يفرح فرحًا، بمعنى تخلقَّ بصفات الفهد؛ وكذلك يشتقون من كلمة أسد، فيقولون: أسد الرجل يأسدَ أسدًا، بمعنى أنه تخلق بخلق الأسد.

وفى «صحيح البخارى»: عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهَدن وتعاقدن إلّا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا.. (الحديث)[1]. فذكرتْ - رضى الله عنها - حديث زوجة تدعى كبشة تقول فيه واصفة زوجها: «زوجى إن دخل فهد، وإن خرجَ أسد، ولا يسأل عما عَهد».

فها هنا ثلاثة أوصاف فيها مدح للزوج:

أحدها: أنه إذا دخل بيته دخل بخير كثير، لأن الفهد كثير الكسب، فإنهم يضربون به المثل فى ذلك، فيقولون: أكسب من فهد، والفهود الهرمة من شأنها أنها تجتمع على فهد منها ذى فتوةٌ يتصيد عليها كل يوم حتى يشبعها، فكأن هذه المرأة فى وصفها زوجها تقول: إنه إذا دخل المنزل، دخل بالكسب لأهله الذين لا يقدرون عليه، كما يجيء الفهد لمن يلوذ به من الفهود الهرمة.

وثانى الأوصاف: أنه إذا خرج من البيت أسد ففعل كما يفعل الأسد فى جراءته وشجاعته.

وثالثها: أنه لا يسأل عما عَهد، تعنى أنه يتغافل عما يعهدهُ فى بيته من ماله فلا يفقده لتمام مروءته وكمال كرَمه.

وأول من اصطاد بالفهد - فيما يذكر صاحب الصبح - كليب بن وائل،

---

(١) الحديث فى «صحيح البخارى» ومع ذلك لا يكاد المتأمل أن يطمئن إليه، لأن فيه أوصافًا لأحوال بين الأزواج، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إذاعة ما يكون بين الزوجة وزوجها.

وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

الكلب:

قال الدميرى: الكلب حيوان معروف، وربما وُصِف به فقيل للرجل كلب وللمرأة كلبة. وكِلاب اسم أحد أجداد النبى ﷺ.

وهو إما منقول من المصدر الذى هو فى معنى المكالبة نحو كالبْتُ العدوّ مكالبة وكلابًا، وإما أنه جمع كلب، وسموه بذلك طلبًا للكثرة، كما سموا سباعًا وأنمارًا، جمع سبع ونمر.

وقد قيل لأبى الدقيس الأعرابى: لم تسمُّون أبناءكم بِشَرِّ الأسماء مثل كلب وذئب، فى حين تسمُّون عبيدكم بأحسن الأسماء مثل مرزوق وبلال ورباح؟ فقال: إننا نسمِّى أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا[1]، وكأنهم إنما قصدوا بذلك التفاؤل بمكالبة العدو وقهره.

والكلب حيوان شديد الرياضة كثير الوفاء.. وهو: لا سبع ولا بهيمة، حتى كأنه من الخلق المركبُ، لأنه لو تمَّ له طباع السبعية ما ألف الناس، ولو تم له طباع البهيمية ما أكل لحم الحيوان.. لكن الحديثَ أطلق عليه بهيمة، فقد روى مسلم أن النبى ﷺ قال: «بينما امرأة تمشى بفلاة من الأرض، اشتد عليها العطش، فنزلت بئرًا فشربت ثم صعدت فوجدت كلبًا يأكل الثرى من العطش، فقالت: لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى،

---

(١) يعنى: هتف بأبنائنا إلى اعدائنا: اذهب إليه يا كلب، يا أسد. وندعو عبيدنا إلينا. هلم يا رباح أقبل يا بلال.

فنزلت البئر فملأت خفَّها وأمسكته بفيها ثم صعدت فسقته فشكر الله لها ذلك وغفر لها». قالوا: يا رسول الله أوَلنا فى البهائم أجرٌ؟ قال ﷺ: نعم فى كلِّ كَبِدٍ رطبة أجر.

والكلاب نوعان: السلوقية، وهى من أحرار الكلاب وعتاقها، وغير السلوقية، وربما صادت هذه كما تصيد السلوقية، ولكنها تقصر عنها بعيدًا. وسَلوق التى تُنسب إليها هذه الكلاب، بلد من أرض اليمن.

وفى طبع الكلب الاحتلام، وأثناه تحيض، وفى الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات. والجيفة أحبُّ إليه من اللحم الغريض. وبينه وبين الضبع عداوة شديدة، حتى إنه إذا كان فى مكان عالٍ ووطئت الضبع ظله فى القمر، فإنه يرمى بنفسه عليها مخذولاً فتأخذه فتأكله.

ومن طبعه أن يحرس ربَّه ويحمى حرمه شاهدًا وغائبًا ذاكرًا وغافلًا يقظان ونائمًا. وهو أيقظ الحيوان عينًا فى وقت حاجته إلى النوم، وإنما غالب نومه نهارًا عند الاستغناء عن الحراسة. وهو فى نومه شديد الحذر حديد السمع، فإذا نام كسَر أجفان عينيه دون أن يُطبقها، لخفة نومه.

ومن عجيب طباعه أنه يُكرم الجلّة من الناس وأهل الوجاهة، فلا ينبح أحدًا منهم، وربما حاد عن طريقه، وإنما ينبح من الناس الدنس الثياب، والضعيف الحال. ومن طباعه البصبصة والترضى والتودُّد والتألُّف بحيث إذا دعى بعد الضرب والطرد رجع، وإذا لاعبه ربُّه عضه العض الذى لا يؤلم، مع أن أنيابه لو أنشبَها فى الحجر، لنشبت. ويقبل التأديب والتعليم، حتى لو وضعت على رأسه مسرجة وطرح له مأكول، لم يلتفت إليه مادام على تلك الحال. فإذا أُخذت المسرجة عن رأسه، وثب إلى مأكوله وثبًا. والسلوقى منه

إذا عاين الظباء قريبة أو بعيدة، عرف المقبل من المدبر والذكر منه والأنثى، ويعرف الميت من الناس والمتماوت.

وفي كتاب «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» ذكر محمد ابن خلف المرزبان عن جده قال: «رأى رسول الله ﷺ رجلًا قتيلًا فقال: ما شأنه؟ قالوا: إنه وثب على غنم بني زهرة فأخذ منها شاة فوثب عليه كلب الماشية فقتله. فقال رسول الله ﷺ: «قتل الرجل نفسه وأضاع دينه وعصى ربَّه وخان أخاه وكان الكلب خيرًا منه».

قال أهل الفن: وخيرُ الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة، ثم البيض إذا كانت عيونها سودًا، والأبيض أفرَه، والأسود أصبر على الحرِّ والبرد.

ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، ناتئ الزور، غليظ العضُدين، مستقيم اليدين، منظم الأظافير، عريض ما بين مفاصل الأعطاف. وإذا ولدت الكلبة واحدًا كان أفره[1] من أبويه، وإن ولدت اثنين كان الذكر أفره من الأنثى، وإن ولدت ثلاثة فيها أُنثى في شبه الأم، كانت أفره الثلاثة. وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها، وإذا أُلقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى، فأيها مشى على أربع فهو أفره، وإناث الكلاب أسرع تعلماً من الذكور وأطول أعمارًا، حتى إنها لتعيش عشرين سنة.

ومن خصائص الكلب أن رأسه كله من عظم واحد، وإذا عاين الظباء -بعيدة كانت أوقريبة- عرف المعتل وغير المعتل منها، وعرف العنز من

(١) الفراهة: الحذق والمهارة

التيس، فإذا أبصر القطيع لم يقصد إلا التيس، وإن علم أنه أشد حضرًا[١] وأبعد وثبة، وترك العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حضرها وقصر خطوها، ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو سوطين حقب ببوله. وكل حيوان يعرض له مع شدة الفزع إما سلس البول والتقطير وإما الأسر والحقب[٢]. وإذا حقب التيس لم يستطع البول مع شدة الحضر، فيقل عدوه، ويقصر خطوه، ويعتريه البهر[٣] حتى يلحقه الكلب.

والعنز إذا اعتراها البول، فإنها - لسعة مسيلها - تحذف ببولها وترمى به مقطعًا، والكلب يعرف ذلك طبعًا لا تجربة، دون أن يحتاج إلى معاناة أو تعليم أو تدريب.

وأنت تخرج مع الكلب إلى الصيد فى يوم الجليد والثلج وهما متراكمان على الأرض، لا يثبت عليها قدم ولا خف ولا حافر ولا ظلف، فيمضى الكلب، ومعه الإنسان العاقل، والصياد المجرب، فلا يدرى أين موضع جحر الأرنب من جميع بسيط الأرض، ولا موضع كناس الظبى، ولا مَكوّ الثعلب وجحره، ولا غير ذلك من موالج وحوش الأرض، فيلتفت الكلب بين يدى صاحبه وخلفه، وعن يمينه وشماله ويتسم ويتشمم، ويتبصر، حتى يقف على أفواه تلك الجحرة فيثير ما فيها، وذلك أن أنفاس الوحش المستكنة فيها، وبخار أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكنة فيها فى عمق الأرض، تذيب ما لاقاها من فم الجحر من الثلج حتى يرق ذلك، وهو خفىّ غامض، لا يقع عليه قانص ولا راع ولا قائف ولا فلاح.

---

(١) الحضر: عدو دو وثب.

(٢) الأسر والحقب: حتبس البول.

(٣) البهر: تتابع النفس من الإعياء.

وللكلب في الإصعاد خلف الأرانب في الجبل الشاهق، من الرفق وحسن الاهتداء مالا خفاء به. ومن دهائه أنه لا يخفى عليه الميت والمتماوت في تشممه.

ويقال: إن المجوس لا يدفنون ميتًا لهم حتى يدنوا منه كلب يشممه، فتظهر لهم منه في تشممه إياه علائم يستدلون بها على حياته أو موته، وكذلك لا تجوز عليه حيلة الثعلب في التماوت، وإن كان الثعلب لا يفعل ذلك مع الكلب، ولكن الثعلب يتماوت للغراب وغيره، نافخًا بطنه، فإذا دنا منه قبض عليه، وهو إنما يتماوت للغراب ولا يتماوت للكلب لعدم الحاجة إلى هذا التماوت من حيث كان تماوته للغراب وسيلة اقتناصه وافتراسه، وهذا في الكلب غير ميسور له.

والكلب – على ما ذكر مالك والزهري وداود – طاهر، وإنما يغسل الإناء من ولوغه تعبدًا، وكذلك حكي هذا عن الحسن البصري وعروة بن الزبير، محتجين بقوله تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم﴾، ولم يذكر غسل موضع إمساكها، كما احتجوا لذلك بحديث ابن عمر – رضى الله تعالى عنهما – قال: «كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ وتبول، فلم يكونوا يرشون شيئًا من ذلك» على ما ذكر الإمام البخاري في الصحيح.

ومن خصائص الكلب الجلية فيه أن كل الجوارح تعمل لأنفسها إلا الكلاب، فإنها تجرى على خلق في الاكتساب لأصحابها، فصاحب الكلب مدين لكلبه، وليس كلبه مدينًا له على ما كان ينبغي أن يكون، وهو المعنى الذي صوره أدق تصوير، الحسن بن هاني، حيث قال:

أنعت كلبًا أهله في كدّه قد سعدت جدودهم بجدّه[1]

---

(١) يقول: إنه يصف الكلب الذي سعد أهله في تعبه وجهده، فحظهم من حظه.

فكل خير عندهم من عندهِ يظلُّ مولاه له كعَبدهِ[١]
يبيت أدنى صاحب من مهدهِ وإن عرى جلله ببُردهِ[٢]
ذو غرَّة محجل بزندِه تلذ منه العين حسن قدّه[٣]
يا حسن شدقيه وطول خده تلقى الظباء عنتًا من طردِه[٤]
تشرب كأس حتفها من شده يصيدنا عِشرين فى مرقده[٥]
يا لك من كلبٍ نسيج وحدهِ[٦]

ومما لاينكره منكر على أهل الذوق البيانى، ما أشار إليه أهل الفقه بأساليب القرآن من التعبير عن كلب أهل الكهف، تعبيرًا يشعر بالصحبة وليس بالتبعية، فكأن الكلب واحد منهم وإن كان خادمًا لهم وحارسًا، فذلك قول الله تعالى ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ وذلك أن فى التعبير برابعهم وسادسهم وثامنهم معنى فاضلا لا يقوم به التعبير الذى يؤثر كلمة مع، حتى يقول: ثلاثة معهم كلبهم أو خمسة معهم كلبهم أو سبعة معهم كلبهم. وليس يخفى هذا الفرق بين الأسلوبين على ذى بصر بصناعة الكلام.

ثم إن الكلاب إخوة الخيل، فما يستجاد منها يستجاد منها. ومالا، فلا. وقد ذكروا فى هذا الصدد أن المأمون قال لبعض أصحابه: امض إلى البادية فابتع

---

(١) فى عنده من خير فهو منه، ومن هنا ترى سيده كأنه عبد له

(٢) فهو يبيت قريبا من مرقده برًّا به وحرصًا عليه، فإذا تعرض للبرد غطاه بما هو محتاج إليه

(٣) وهذا الكلب ذو غرة فى وجهه ومحجل فى زنده، ومن أجل هذا تلذه العين لحسن قوامه

(٤) فما أحسن شدقيه مع طول خده، وما أعنته للظباء حين يطردها

(٥) فهو بهذا الطرد يذيقها الموت من شده عدوه وراءها فى بساط شديد يمكنه من أن يصيد من الظباء عشرين المرقد مثل معتر لطفرة بشاطًا.

(٦) فكأن الله تعالى قد خلق هذا الكلب وحده دون أن يشركه فى أخلاقه كلب مثله.

منها خيلا تستجيدها. قال الرجل: يا أمير المؤمنين لست بصيرًا بالخيل، قال المأمون: أفلست بصيرًا بالكلاب؟ قال الرجل: نعم. قال: فأبصر كل ما تتوخاه فى الكلب المنجب الفاره والتمس مثله فى الفرس.

ومن أعجب شىء فى هذا الباب ما تزعمه العرب من أن شرب دماء الملوك والأشراف تشفى من الكلب على ما يقول الشاعر العربى مادحًا:

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفى من الكلب

يعنى أن ما يتمتع به هؤلاء الأشراف من نعمة العقل والحلم يشفى من مرض الجهل، كما يشفى شرب دمائهم من مرض الكلب.

والناس يختلفون فى المراد من ذلك. فيذهب قوم إلى أن الشعراء إنما قالوا ذلك إخبارًا عن حقيقة معروفة، وليس إغراءً بالملوك أو الأشراف وتحريضًا على قتلهم، وقال قوم: إنما المعنى أن قتل الأشراف يشفى من الثأر، فالإنسان إذا كان له فى قوم ثأر، لا يشفى صدره إلا بقتل الأكفاء ومن هم أعلى منزله من قتيله.

على أن الجاحظ - رحمه الله - تردد فى قبول المعنى، وسبب هذا التردد ما تمثله من قول الفرزدق:

ولو تشرب الكلبى[1] المراض دماءنا شفتها ودر الخبل الذى هو أدنف

فذكر الخبل والدنف الذى هو المرض، يشير إلى أن المراد إنما هو شرب دم الملوك والأشراف، وليس الثأر المنيم، ثم مضى رحمه الله فى هذه الطريق يروى لعاصم بن القرية الشاعر الجاهلى قوله:

---

(١) المرض بداء الكلب.

وداوَيتـه ممـا بـه من مجنـة[١] دمُ ابن كهَّال والنطاسيُّ واقف

فيقرر فى هذا الشعر أنه داوى المريض بالكلب بدم ابن كهال مع وجود الطبيب المعالج، وذلك يشعر بأن المراد هو شرب الدم للشفاء من الجنون، وليس الثـأر المنيم، كما اختـار ذلك الفـاطمى وذهب إليه بعض أصحـاب الجاحظ.

وهنا أمران ذكرهـا الفاطمى فى كتابه لا يجمل بمن يتحدث عن الكلب أن يتجاوزهما دون أن يشير إليهما:

أحدهما: قوة سمعه.

وثانيهما: قوة بصره.

فأما قوة سمعه، فبرهانها حوار بين عالمين سأل فيه أحدهما صاحبه عن المعنى فى اعتبار الناس المسير على الأنهار الجامدة بالكلب، فذكر أن ذلك لصلابة وطء الكلب وثقله، يعنى أن تجمد الأنهار إذا لم يكن شديد التماسك قويًا فإنه ينهار تحت صلابة وطأة الكلب وثقلها، فيكون ذلك إنذارًا لصاحبه حتى لا يواصل سيره، ولكن السائل - وكان أعلم من المسئول بخصائص الكلاب - لم يرْض هذا الجواب حتى قـال: لا، ولكن ذلك لقـوة حسِّه وسمعه، وأنه إن سمع للماء خريرًا من تحت لم يجز منه.

وأما قوة بصره فبرهانها شعر أنشده الفاطمى الشـاعر يدعى (عبد ربه):

وأُشـرِفُ بالقـور اليفاع لعلنى أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها

يقول: إنه يتسنم الجبل الصغير المنقطع عن الجبال لكى يرى نار ليلى أو يراه بصيرها، يعنى كلبها، فذلك برهان قوة بصره.

---

(١) جنون.